هذا القرآن ، وقد أعانه على هذا العمل أفرادٌ يجيدون الكتابة ، دوّنوا له حسب الطّلب ، ما راق لـه من تلك الأساطيـر والخرافـات ، حيث كان يـطلب منهم ذلك في كـلّ مناسبـة ، وبخاصّـة في الوقتين اللّذين يغلب فيهما العمل الّذي يحتاج أن يسبقه تهيئة وإعـداد . وهذان الـوقتان همـا الصّباح الباكر ، حيث يدوّن ما هضمته النّفس وجادت به القريحة ليلاً ، والأصيـل ، حيث يدوّن ، مـا هضمته النّفس وجـادت به القـريحـة إثـر الرّاحة وقت القيلولة . ويلاحظ أنّ هـذين الوقتين ، من أنسب الأوقـات في مكّة المكرّمة ، للتّصدي لعمليّة التأليف . فنحن إذن بصـدد اتّهام ، أريـد له بكـلّ الوسـائل أن يجـوز ، بما في ذلـك الإفـادة من الـظّروف الطّبيعيّة للبيئة .

والعجيب أنّ هؤلاء الكافرين يقـولون ذلـك عن القرآن الكـريم ، في الوقت الّذي يعترف فيه حكمـاؤهم ، الّذين أضلّهم اللّه تعـالى على علم ، حينمـا يخلو بعضهم إلى بعض ، ويأمنـون تسـرّب كـلامهم إلى العامّة : بأنّ هذا الكلام ليس له نظيرٌ فيمـا سمعوا من كـلام ، وأنّ هذا الرّجل ، يعنون محمّداً صلّى اللّه عليه وسلّم ، سيكون له شأنٌ أيُّ شأنٍ فيما لو خُلّيَ بينه وبين قبائل العرب . إنّه ليس ببعيد عن أذهاننا مـا قالـه لأساطين قريش عتبة بن ربيعة ، سفيـرها للرّسـول صلّى اللّه عليه وسلّم بعد أن بلّغه عروض قريش عليه من مالٍ وجـاه وسلطان وطبّ ، وسمع من المصـــطفى صلّى اللّه عليـــه وسلّم ، من أوّل ســـورة فصّلت حتّـى موضع السّجدة منها[1] . وليس ببعيد عن أذهاننا أيضاً إصغـاء ثلاثـة من أساطين الكفر خلسةً ، اللّيالي الكـاملة ذوات العدد ، للمصـطفى صلّى اللّه عليـه وسلّم ، وهو يـرتّل القـرآن الكريم تـرتيلاً[2] وليس ببعيـد عن

---

(١) انظر السّيرة ، ١/٢٩٣ .

(٢) انظر السّيرة ، ١/٣١٥ والثلاثة هم : أبو سفيان ، أبو جهل ، الأخنس بن شَرِيق .

أذهاننا أيضاً ، حرص كفّار مكّة على أن يحولوا بين النّاس وبين سماعهم للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم يقرأ القرآن الكريم نهاراً جهاراً في المسجد الحرام . وقد وجّهت السّماء المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم في تلاوته إلى المنهج الوسط الّذي يتيح السّماع للراغبين : « وإنّما أنزلت هذه الآية : ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ، من أجل أولئك النفر . يقول : لا تجهر بصلاتك فيتفرّقوا عنك ، ولا تخافت بها فلا يسمعها من يحبّ أن يسمعها ممّن يسترق ذلك دونهم ، لعلّه يرعوي الى بعض ما يسمع فينتفع به »[1] .

لقد سُئِل ، على سبيل المثال ، أبو جهل ، أحد الثلاثة الّذين أصغوا للنّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، اللّيالي ذوات العدد ، يتلو القرآن ، عن رأيه فيما سمع من النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأجاب حسداً من عند نفسه : « واللّه لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه »[2] .

وهذا الوليد بن المغيرة[3] يصف القرآن الكريم بما ينبغي أن يصفه به كلُّ من أرسل نفسه الصّافية على سجيتها كي تُصْغِيَ لنداء الفطرة ، وإذا به ، تحت تأثير العصبيّة القبليّة ، واستجابة لطلبهم أن يقترح وصفاً للقرآن الكريم ينطلي على النّاس لموافقة طبيعة الاتهام لطبيعة الأثر الّذي يحدثه القرآن الكريم في سليمي الفطرة ، لا يجد وصفاً ملائماً غير القول عن القرآن الكريم بأنّه سحر ، وعن الرّسول العظيم بأنّه ساحر . وكأنّ هذا الاتهام بالسّحر ـ على الرّغم من أنّ الوليد ، في المجلس ذاته ، نفى عن القرآن الكريم صفة السّحر ـ يُعْتبر

---

(١) السّيرة ، ١/٣١٤ .
(٢) السّيرة ، ١/٣١٦ .
(٣) السّيرة ، ١/٢٧٠ .

غاية ما تَمَخّضت عنه نفوسهم الشّرّيرة ، من وصفٍ للقرآن وصاحبه ، وكأنّ الصّفات الأخرى كالكهانة والشّعر وكونه كلام مجنون وأساطير ، بمثابة المراحل الّتي مرّ بها تخبّط القوم وتحيّر نفوسهم الشّريرة في الصّفة أو الصّفات الّتي يريدون إشاعتها عن القرآن الحكيم والرّسول الكريم ، بقصد صرف الناس عنهما .

وإلى مرحلة وصف القرآن الكريم بأنّه أساطير ، أشارت الآية الكريمة الّتي نحن بصددها من سورة الفرقان ، قال تعالى : ﴿ **وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُمْلى عليه بكرةً وأصيلاً** ﴾ . ونكرّر القول بأنّ خصوم هذا الدّين والقرآن ، يردّدون في كلّ مناسبة ، ما يقوله هؤلاء الكفّار ، من كون الرّسول الكريم ، قد ألّف هذا القرآن ، واستقى موادّه من مصادر بشريّة متعدّدة . يردّد هؤلاء هذه الأقوال ، مع معرفتهم ـ كما يعرفون أبناءهم ـ بأنّ هذا القرآن كلام ربّ العالمين . ولكنّ داء الحسد له صورةٌ واحدةٌ خلال كلّ العصور . وإذا كان المتنبي[1] قد قال قديماً :

ولا تطمعن من حاسدٍ في مودّة

فيمكن أن يقال في مثل هذه المناسبة ، قياساً على قول المتنبي ، ولا تطمعن من حاسدٍ في عدالةٍ ولا في إنصاف . أمّا نحن فنقول : إنّ المسلمين لن تقوم لهم قائمةٌ ما لم يطبّقوا قول رسولهم الكريم[2] : « وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً ، أمراً بيّناً ، كتاب اللّه وسنّة نبيّه » . إلاّ تفعلوا ذلك تكن فتنة وفساد كبير ، ويصدق في

---

(١) من قصيدته التي مطلعها :

ليالي بعد الظّاعنين شكول طوالٌ وليل العاشقين طويل

(٢) السّيرة ، ٢/٦٠٤

حقّهم قوله تعالى على لسان رسوله الكريم في هذه السّورة[1] : ﴿ **وقال الرّسول يا ربّ إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾ ويتورّطوا فيما حذّرهم منه ربّ العزّة . قال تعالى[2] : ﴿ **ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه وما نزل من الحقّ ولا يكونوا كالّذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ .

وهذا هو ردّ القرآن الكريم على اتّهامات كفّار مكّة . قال عزّ وجلّ خطاباً للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم : ﴿ **قُلْ أنزله الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض ، إنّه كان غفوراً رحيماً** ﴾ . وأوّل ما نودّ الوقوف عنده ، هو أنّ هذا القرآن الكريم ، يذكر مع أكبر الكائنات وأقوى الأدلّة على قدرته عزّ وجلّ ، أعني السّماوات والأرض ، وذلك دليلٌ على مكانة هذا الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنّها صِنْو مكانة كلّ من السّماوات والأرض . انظر إلى الطّريقة الّتي تعبّر فيها الآية الكريمة ردّاً على الكافرين : ﴿ **قل أنزله الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض** ﴾ وانظر إلى النّسق الّذي يجيء فيه القرآن الكريم في الآيتين الأوليين من السّورة ، فبالإضافة إلى قضيّة التوحيد ، الّتي تُعْنى بها الآيتان الكريمتان ، ثمّة الإشارة إلى الرّسول الكريم ، والعالمين والسّماوات والأرض . وكيف لا ينال القرآن الكريم كلَّ هذه العناية من ربّ العزّة ، وهو أقرب آيات اللّه تعالى للعقول الصّحيحة فهماً ، وأكثرها قدرةً على الوصول للهدف المنشود من أقصر سبيل .

لقد بعث ربّ العزّة خاتم الأنبياء والمرسلين بعد أن بلغت

---

(١) آية ، ٣٠ .

(٢) سورة الحديد ، ١٦ .

الإنسانيّة مرحلة الرّشد ، فلا بدّ أن تكون معجزة هذا النّبيّ مراعيةً هذه الحقيقة ، خاصّة وانّ رسالة الإسلام ، خاتمة رسالات السّماء إلى الأرض . وقد تمثّل ذلك في آخر كلام من اللّه تعالى للبشر ، في القرآن الكريم الّذي تكفّل ربّ العزّة بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها . إنّ كلّ شيءٍ في السّماوات والأرض دليلٌ على وجود اللّه تعالى ذي الجلال المتفرّد بالكمال . ولكن أين هي العقول الّتي تستطيع أن تنتهي إلى هذه النتيجة الحسنة ؟ إنّه على الرّغم من وجود كلّ هذه الدّلائل على قدرته تعالى ، فإنّ رسله عزّ وجلّ ، مع ما أوتوا من آيات بيّناتٍ وخوارق على أنّهم رسل ربّهم ، يصادفون كلَّ مشقّة وعنت من أقوامهم . فكيف يستطيع حيارى البشر أن ينتهوا من قبل أنفسهم إلى توحيد اللّه تعالى .؟ إنّهم بحاجة إلى رسل اللّه تعالى الّذين استطاعوا بما أوتوا من آيات بيّنات وكفاءات ، أن ينبّهوا الغافلين ، ويوقظوا النّائمين ، ويحملوا أتباعهم على الانتفاع ممّا منّ اللّه تعالى به عليهم من نعمة العقل كي يتدبّروا آيات اللّه تعالى ، ومن هذه الآيات ، السّماوات والأرض .

وفيما يتّصل بالقرآن الكريم ، معجزة الإسلام الخالدة ، هو يلفت الانتباه الى جليل الآيات وخفيّها ، إلى السّماوات والأرض ، وإلى النّفس الإنسانيّة ووساوسها . وما أكثر الآيات الدّالة على قدرة اللّه تعالى ووحدانيته ، الواقعة بين جليل الآيات وخفيّها ، تلك الآيات الّتي نبّه إليها القرآن الكريم ، أقرب آيات اللّه تعالى للعقول الصّحيحة فهماً ، وأقدرها على الوصول إلى أجلّ المقاصد من أقصر الطّرق ، قال تعالى[1] : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه**

---

(١) سورة فصّلت ، ٥٣

الحق ، أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد ﴾ . ولعمر الحق ، إنّ القرآن الكريم ، شهادة أزليّة على منزلة الكلمة الصّحيحة الصّادقة ، بين مختلف الوسائل ، في القدرة الفائقة على الوصول إلى أسمى الغايات وأنبل المقاصد من أقرب طريق . وحيث إنّ القرآن الكريم ، هو معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين ، الّذي بعثه اللّه تعالى للعالمين ، كي يحقّقوا هدف العبادة الذي من أجله خلقهم اللّه تعالى ، فما أخلق هذا القرآن ، الّذي هو في أمّ الكتاب ، لديه عزّ وجلّ ، عليٌّ حكيم ، أن يجيء ذكره في أثناء الحديث في قضيّة توحيد اللّه تعالى المتفرّد بالخلق والأمر ، وفي أثناء الحديث عن الرّسول الكريم ، والعالمين ، والسّماوات والأرض .

والحقيقة أنّه ينبغي الوقوف مليّاً عند تعبير الآية الكريمة عن الذّات العليّة ، بأنّ الّذي أنزل القرآن الكريم هو اللّه الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض . سبحان اللّه الّذي لا إله إلاّ هو عالم السّرّ وأخفى ، عالم ما في هذا القرآن الكريم من أسرار وأسرار ، يتكشّف بعضها إثر بعض بمرور الدّهور والأعصار ، وهي أسرارٌ لا يقوى على تضمينها هذا الكتاب سوى الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض .

وإذا كان كفّار مكّة قد أحسّوا في أعماقهم بأنّ القرآن الكريم قد فعل في نفوسهم فعل السِّحْر ، فزعموا أنّه ضربٌ من السّحر ، فإنهم قد ضلّوا السَّبيل وأخطأوا التّعليل ، إذ لم ينتفعوا بما منّ اللّه تعالى على الإنسان من فكر يتأمّل ويتدبّر ، وعقل يحكم ويُنصف ، ونفسٍ تتجاوب وتعجب .

وماذا نحن قائلون عن بعض أسرار هذا الكتاب العزيز وأسرار السّماوات والأرض ؟ إليك بعضاً منها . قال تعالى في حقّ القرآن

الكريم[1] : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ وقال تعالى في علمه المحيط[2] : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وقال[3] : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ، ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ، ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾ وقال[4] : ﴿ ألمْ تَرَ أنّ اللّه يعلم ما في السّماوات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا ثمّ ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إنّ اللّه بكلّ شيء عليم ﴾ .

ونحن حينما نقف على حقيقة التّناقض الّذي تورّط فيه كفّار مكّة من إجحاف بالقرآن الكريم وإنصاف لكلام البشر ، ندرك إلى أيّ مدى عطّل القوم ملكة الإنصاف فيهم بشأن القرآن الكريم والرّسول العظيم والدّين الّذي ارتضى ربّ العزّة لعباده . كما ندرك المغزى البعيد لاختيار الآية الكريمة صفة علم اللّه تعالى سرّ السّماوات والأرض ، ممّا هو دليلٌ على اشتمال القرآن الكريم على الكثير من الأسرار والحكم ، كان الأوْلى بكفّار مكّة أهل البلاغة ، أن يستفيدوا ممّا خصُّوا به من مقدرةٍ على البيان ، وإدراك منزلة كلّ كلام ، في تأمّل القرآن الكريم وتدبّره ، ومحاولة الكشف عن شيء من أسراره وحكمه . الويل لهؤلاء الّذين ينكرون نعم اللّه تعالى ويجحدون فضله ويتحوّلون حرباً لدينه

---

(١) سورة الإسراء ، ٨٨ .

(٢) سورة ق ، ١٦ .

(٣) سورة الأنعام ، ٥٩ .

(٤) سورة المجادلة ، ٧ .

ورسوله وأوليائه . ما أعمق المرامي البعيدة لمعاني هذه الآية الكريمة : ﴿ **قُلْ أنزله الّذي يعلم السّرّ في السّماوات والأرض إنّه كان غفوراً رحيماً** ﴾ .

ولنا كلمةٌ أخيرةٌ بشأن طبيعة الرّدّ على الكافرين الّذين اتهموا القرآن الكريم بأنّه إفكٌ وأساطير الأوّلين . وتتلخّص هذه الكلمة في كون الرّد القرآنيّ على الكافرين سريعاً وفوريّاً . لقد ردّت الآية الأولى ، في عَجُزها ، على أوّل الاتهامين الّذي تضمّنه صدرها . وردّت الآية الثّالثة على ثاني الاتّهامين الّذي تضمنته الآية الثانية . وإنّ هذا الرّدّ السّريع والفوري له كبير فضلٍ في تهيئتنا لتبيّن الرّدّ الّذي تلك صفته ، في القسم الثاني من السّورة ، المتضمّن للاعتراضات الأربعة للكافرين على الرّسول الكريم . فإلى القسم الثّاني من السّورة الكريمة .

القسم الثاني

اعتراضاتٌ وردود

تبدأ آيات هـذا القسم بذكـر الاعتراضـات الأربعة للكـافرين. في طريقة القرآن الكريم العجيبة في السَّرد ، ثمّ تكرّ على الاعتراضات بالرّدّ عليها ودحضها. وبعد أن تدحض اعتراضين تكشف عن الباعث الحقيقيّ على هذه الاعتراضات . فهم قد كذّبوا بالسّاعة ، مع أنّهـا حقّ ، فالنّـار تنتـظرهم . ثمّ تفيض الآيات في وصف عـذاب القوم ، وتتمُّ المقـارنـة السّـريعة بين حـال هؤلاء المكـذّبين في النّـار وحـال المتّقين في الجنّـة حيث ينالون ما يشتهون حسب وعد اللّه تعالى لهم . وتعـود الآيات الى ملء الفراغ الّذي تركت بأن تتحدّث عن الحشر والحساب ، وتركّز على إشراكهم مع اللّه تعالى غيره . ثم تدحض الاعتراض الثّالث حاثّـة على الصّبر . وفي ذلك ، بالدّرجة الأولى ، تسليةٌ للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهي بذلك ممهّدةٌ للتّسلية الّتي ستكون أشدّ وضـوحاً وصـراحة كلّمـا اقتربنـا من نهايـة آيات القسم . ثمّ تـدحض الاعتراض الـرّابع . وحيث إنّ الدّافع على هذه الاعتراضات واحد ، هو التكذيب بالسّاعة ، فقد عمّقت الآيات بعد ذلك هـذا المفهوم ذاتـه ، مفيضةً الحـديث عن هؤلاء المكذّبين يوم القيامة ، حينما يندمـون ولات ساعـة مندم . وكمـا كانت الإشارة عن أصحـاب الجنّة قبـل ذلك عـابرة ، بقصـد التّنبيه الى

الفارق بين الموقفين مع التّركيز على الإنذار ، وذلك في ضوء توجيه الآية الكريمة الأولى من السّورة ، فقد حدث الشيء ذاته هنا بشأن أصحاب الجنّة الذين هم خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً .

ولمّا كانت هذه المواقف شاملةً لكلّ المكذبين لرسل اللّه تعالى ، وفي مقدّمتهم كفّار مكة المكذّبون للرّسول الكريم المنكرون للقرآن الحكيم ، ولمّا كان كفّار مكّة هم هدف السّورة القريب ، فقد اقتضى ذلك أن يخصّوا بتوجيه الإنذار لهم والتّهديد . وكان ذلك أولاً في هيئة تقرير شكوى المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم لربّه في ذلك اليوم المشهود ، انصراف قومه عن القرآن الكريم وهجرهم له . تلا ذلك تقرير اعتراض كفّار مكة على الطّريقة الّتي نزل فيها القرآن الكريم منجّماً . وكان الرّدّ هذه المرّة فوريّاً مبيّناً الحكمة من نزول القرآن منجّماً وهي تثبيت فؤاده صلّى اللّه عليه وسلّم ومن مظاهر ذلك دحض كلّ اعتراض وفرية . ويختم هذا القسم بملء آخر الفراغات الّتي تركتها الآيات بشأن الأحوال الّتي يتقلّب فيها الكافرون يوم القيامة ، وذلك بتصوير الطّريقة الّتي يحشرون فيها إلى جهنّم . إنّهم يحشرون على وجوههم ، والعياذ باللّه . فمع آيات هذا القسم الثاني . قال تعالى : **﴿ وقالوا ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق لولا أُنزِل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيراً * أو يُلْقى إليه كنزٌ أو تكون له جنّةٌ يأكل منها ، وقال الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً * تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً * بل كذّبوا بالسّاعة واعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيراً * إذا رأتهم من مكانٍ بعيد سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعوا**

هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً * قُلْ أذلك خيْرٌ أم جنّة الخُلْد الّتي وُعِد المتّقون ، كانت لهم جزاءً ومصيراً * لهم فيها ما يشاءون خالدين ، كان على ربّك وعداً مسئولاً * ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون اللّه فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السّبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نّتّخذ من دونك من أولياء ولكن متّعتَهُمْ وآباءهم حتّى نسوا الذّكر وكانوا قوماً بوراً * فقد كذّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صَرْفاً ولا نصراً ، ومن يَظْلم منكم نذقه عذاباً كبيراً * وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنة ، أتصبرون ، وكان ربّك بصيراً * وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بُشْرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً * وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عَمَلٍ فجعلناه هباءً منثوراً * أصحاب الجنّة يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسن مقيلاً * ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونُزِّل الملائكة تنزيلاً * المُلْك يومئذٍ الحق للرّحمن ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً * ويوم يعضّ الظّالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً * يا ويْلتي ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلّني عن الذّكر بعد إذ جاءني ، وكان الشّيطان للإنسان خذولاً * وقال الرّسول يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً * وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً من المجرمين ، وكفى بربّك هادياً ونصيراً * وقال الّذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً * ولا يأتونك بمثلٍ إلّا جئناك بالحقّ وأحسَنَ تفسيراً ، الّذين يحشرون على وجوههم الى جهنّم أولئك شرّ مكاناً وأضلّ سبيلاً ﴾ .

الاعتراضات الأربعة للكافرين على الرّسول الكريم :

سبق أن تبيّنّا بشأن القسم الأوّل من السّورة أنّ حديث الآيات الأخيرة عن القرآن الكريم يجيء إثر الحديث عن الذّات العليّة وقضيّة التّوحيد . وحينما تبدأ آيات القسم الثّاني بتسجيل اعتراضات الكافرين على الرّسول الكريم ، نتبيّن أنّ تفصيل الحديث في هذه الموضوعات يسير وفق الإشارة إليها في الآية الكريمة الأولى من السّورة ، قال تعالى : ﴿ **تبارك الّذي نزّل الفُرْقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ وهاتان هما الآيتان الكريمتان اللّتان تسجّلان الاعتراضات الأربعة . قال تعالى : ﴿ **وقالوا ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيراً * أو يُلْقى إليه كنزٌ أو تكون له جنّة يأكل منها ، وقال الظّالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً** ﴾ .

وينبغي ابتداءً التّنويه بأنّ ما نظمته الآيتان الكريمتان من اعتراضات للكافرين ، كان أساساً مفرّقاً على ألسنة مجموعاتهم . فهذه المجموعة استنكرت أن يأكل الرّسول الطّعام ، وهذه أن يمشي في الأسواق يبتغي من فضل اللّه تعالى ، وتلك اتّهمته بأنه ساحر وأخرى بأنّه كاهن وثالثة بأنّه شاعرٌ وهكذا .

وهذا لا يمنع أن تشترك في الاعتراض الواحد أكثر من مجموعة . ومن أجمع آيات القرآن الكريم لأمثال هذه التّرّهات في حقّه عليه الصّلاة والسّلام ، هذه الآيات من سورة الإسراء[1] ، قال تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنّة من نخيلٍ وعنبٍ فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السّماء**

---

(١) آيات ، ٩٠ - ٩٤ .

كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باللّه والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيتٌ من زخرفٍ أو ترقى من السّماء ، ولن نؤمن لرقيّك حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربّي هل كنت إلّا بشراً رسولاً﴾ .

فإذا سرنا مع ما جرى على ألسنة هؤلاء الكافرين خطوة خطوة وابتدأنا بأوّل الاعتراضات ، قال تعالى : **﴿ وقالوا ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ﴾** . فإنه يتبيّن أنّ هؤلاء القوم قد سبق إلى روعهم أنّ رسول اللّه تعالى إلى البشر ، إنّ صحّ أنّ ثمّة رسولاً ، فإنّه ينبغي أن يكون واحداً من خلق اللّه تعالى المساوي في علوّ منزلته للمنزلة العالية للرّسالة . ويعنون بذلك أن يكون الرّسول ملكاً من الملائكة ، وليس واحداً من البشر الّذين يخضعون للضّرورات الّتي يخضع لها البشر من حاجةٍ إلى الطّعام والشّراب وما إلى ذلك . وفوق هذا هم يلاحظون أنّ هذا الّذي يدّعي أنّه رسول ربّ العالمين ، ليس من أغنياء قريته مكّة ، وبالتّالي هو ليس بعظيم من عظمائها هي ، ولا من عظماء القرية المجاورة لها ، أعني الطّائف . وقد سجّلت سورة الزّخرف[1] هذا الاعتراض مفصّلاً في قوله تعالى : **﴿ وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدّنيا ، ورفعنا بعضهُمْ فوق بعضٍ درجاتٍ ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريّاً ، ورحمة ربّك خيرٌ ممّا يجمعون ﴾** .

ولأنّ الرّسول الكريم إنسانٌ وليس ثريّاً ، فقد اضطر إلى أن يضرب في الأرض يمشي في الأسواق يبتغي من فضل اللّه تعالى . وكفّار مكّة لهم اعتراضٌ على اضطرار رسول اللّه تعالى إلى أن يعمل

---

(١) آية ، ٣١ ، ٣٢ .

في سبيل لقمة العيش ، لأنّ العمل في وهمهم يتعارض مع المنزلة العالية للرّسالة . وغفل هؤلاء عن كون عمل الرّسول ، ابتغاء فضل اللّه تعالى ، يعتبر رفعاً لمنزلة العمل نفسه وتكريماً له . وما أعلى منزلة العمل في الإسلام وأسناها .

ويرى هؤلاء الكفّار أيضاً أنّه ما دام رسول اللّه ينبغي أن يكون واحداً من البشر ، فلا أقلّ من أن تكون الرّسالة شركة بينه وبين واحد من الملائكة ـ على الأقل ـ يقوم بتصديقه والإنذار معه . ولا أقلّ كذلك من أن يكون هذا الرّسول في غنىً عن أن يمشي في الأسواق يبتغي من فضل اللّه تعالى ، بأن يُنْزِل اللّه تعالى إليه كنزاً من السّماء ، ينفق منه بحرّيّة وبذخ ، أو على الأقلّ ، تكون له في أرض مكّة ، ذات الوادي غير ذي الزّرع جنّة تجري في أصول شجرها الأنهار ، وتتدلّى فيها الثّمار ، كي تكون تلك الجنّة دليلاً على صدقه وحجازاً بينه وبين أن يحتاج لأن يعمل ، جرياً وراء لقمة العيش .

وقالت جماعة أخرى من هؤلاء الكفّار ، ليس هذا الّذي يدّعي أنّه رسول ربّ العالمين سوى رجلٍ مسحور مغلوب على قواه العقليّة بقوى خارجيّة غير حسنة .

ويلاحظ أنّ كفّار مكّة قومٌ قد غلبت عليهم المادّة وسيطرت على حياتهم لدرجة أنّهم يعلنون على رؤوس الأشهاد بأنّهم أكثر فَهْماً للدّينار والدّرهم ، والجنّات المعروشات وغير المعروشات وما إلى ذلك . أمّا أن ينتفعوا من نعمة العقل الّتي منّ اللّه تعالى بها عليهم ومن نعمة البيان الّتي لهم حظٌّ موفور منها كي يتدبّروا القرآن الكريم ويفهموا الحكمة والنّعمة من كون رسول اللّه تعالى إليهم واحداً منهم ، فإنّ مثل

هـذا التّدبُّـر والفهم أبعد منهم منـالاً ، بل وأنـأى من أيّة محـاولةٍ جـادّةٍ لهم .

ويلاحظ أيضاً أن كفّار مكّة يستعملون بشأن الملك الّذي يقترحون نزوله مع الرّسول حرف الجر إلى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **لولا أنزل إليه ملك** ﴾ بينما يستعملون بشأنهم حرف الجرّ على ، وذلك في قـوله تعالى : ﴿ **وقال الّذين لا يرجون لقاءنـا لولا أنـزل علينا المـلائكة** ﴾ ، وهـذا يصحّ أن يكـون دليلاً آخـر على مـدى إسـراف القـوم في الـظّلم والعدوان . فهم إذا كانوا قد اكتفوا بشأن الملائكة في حقّهم أن يكـونوا في المقام الّذي يُقْتنع بمثله ـ في تصوّرهم وتصـوّر أمثالهم ـ دليـلاً على كون محمّد بن عبـد اللّه رسول ربّ العـالمين ، فإنّهم يشتـرطون بشـأن الملك في حقّه عليه الصّلاة والسّلام أن يكون معه جنباً إلى جنب .

وهكذا يتبيّن أنّه على الرّغم من كون الكافرين لم يكونوا وقتـاً من الأوقات منصفين ولا منطقيّين في سـرد اعتراضـاتهم ، لأنّهم لم يكونـوا يثبتـون على رأي بعينه ولأنّهم كـانـوا متنـاقضين في أنفسهم ، هـذا إلى تعمّدهم الكذب ، فإنّ القرآن الكريم سرد هذه الاعتراضات في طريقته الـرّائعة فبـدأ بالشّق الأوّل من اعتـراضهم الأوّل بكون الـرّسول الكـريم يأكل الطّعام . وفهم ضمناً من ذلك أنّه عليه الصّلاة والسّلام لـو لم يأكـل الـطّعـام لكـان ملكـاً ، لـذا كـان كـلٌّ من الشّق الثّـاني لـلاعتـراض ، والاعتراض التّالي ، مرتبطين بالشّقّ الأوّل تمام الارتبـاط . الشّقّ الثّاني بمنزلة الوسيلة الّتي يستطيع من طريقها الرّسول الإنسان أن يحصل على الـطّعـام ، بـأن يمشي في الأسـواق يبتغي من فضـل اللّه تعـالى ، والاعتراض التّالي ذو علاقة بالبديـل الّذي أراد الكـافرون أن يتمثّـل فيه الرّسول الكريم . إنّ للقوم آراء عدّة في هذه القضيّة ، فهم يطلبـون مرّة

أن يكـون الرّسـول ملكاً من المـلائكة أو أن تكـون الرّسـالة شـركـة بين الرّسول الكريم وبين ملك من الملائكـة أو مجموعـة تقوم بـدور الشّهود العدول على أنّه صلّى اللّه عليه وسلّم رسول ربّ العالمين . ومرّة ثـالثة أن ينزل عليهم الملائكة كي تقوم بدور الشّهود ، وهكذا .

وإذا كـانت اعتـراضـات الكـافـرين على الـرّسـول ذات شقّين رئيسيّين ، الأوّل يتعلّق بكـونـه واحـداً من البشـر ، وقـد فهم ذلـك من القـول على لسانهم : ﴿ **مـال هذا الـرّسول يـأكـل الـطّعـام ويمشي في الأسواق لولا أنـزل إليه ملكٌ فيكـون معه نـذيراً** ﴾ والثّـاني يتعلّق بكون هـذا الرّسـول الإنسان فقيـراً ولـيس غنيّاً ، فقـد تمّ تسجيـل مـظهـرين يتّصـلان بصفة الـرّسول هـذه في نـظر القـوم . وكـان ذلـك متمثّلاً في الاعتراض الثالث بشقّيـه في قولـه تعالى على لسـانهم : ﴿ **أو يُلْقي إليه كنز أو تكون له جنّة يأكل منها** ﴾ إنّ العلاقة واضحة تمـام الوضـوح بين مـظاهر الاعتـراض هذه المتعلّقـة بشقّيه الـرّئيسيّين المترابـطين . فليس الحثّ على أن يلقى إلى الرّسول كنز أو تكون له جنّة يأكل منها إلاّ ثمرة الاعتراض على كون الرّسول الكـريم فقيراً ، فـاضطرّ إلى أن يمشي في الأسـواق . فالمشي في الأسـواق إذن يأخـذ بنصيب من كلّ من الشّقّين الرّئيسيين للاعتراض . وختمت الاعتراضات بأشـدّها وضـوحاً في كـونه كـذباً صـراحاً . قـال تعالى : ﴿ **وقـال الظّالمـون إن تتّبعـون إلاّ رجـلاً مسحوراً** ﴾ .

وإذا نظرنا إلى الاعتراضات من الوجهة الصّوتيّة ، تبيّنّـا أنّ الكلام الّذي ينظمها يتكوّن من آيتين كريمتين . كلّ آية تتكوّن من أقسام صوتيّة ثلاثة . وحينمـا نضع كـلّ قسم أمام الّـذي يقابله يـروعنا كـون القسمين الأوّلين القصيرين في كلّيهما متجانسين من حيث النغمة . وكـون القسم

الثّالث الّذي يميل إلى الطّول متجانساً مع ما يقابله من حيث النغمة ومن حيث الفاصلة أيضاً . وينتج من ذلك كلّه كون الآيتين الكريمتين متجانستين معنويّاً ، كما تبيّن من ذي قبل ، وصوتيّاً ، إذ نستطيع أن نقول إنّ كلاً من الآيتين الكريمتين المتجانستين يتكوّن من ثلاثة أقسام . كما نستطيع ـ الى حد بعيدٍ ـ أن نقول : إنّ كلاً من الآيتين يمكن أن تنقسم الى نصفين . واللّطيف في الأمر أن النّصفين الأوّلين يتكوّنان على التّوالي من تسع وحدات صوتيّة وعشر وحدات[1] وأنّ النّصفين الأخيرين يتكوّن كلّ من سبع وحدات .

رد القرآن الكريم على اعتراضات الكافرين وإنذارهم

تبيّنّا أن لكفّار مكّة أربعة اعتراضات سجّلتها الآيتان الكريمتان ، وهذه هي الاعتراضات :

(أ) أكل الطّعام والمشي في الأسواق .

(ب) طلب نزول الملك شريكاً أو شاهداً .

(جـ) طلب إلقاء الكنز على الرّسول أو أن تكون له جنّةٌ يأكل منها .

(د) اتهامه بالسّحْر وما إلى ذلك في غير هذه المناسبة .

وسبق أن نبّهنا إلى أنّ هذه الاعتراضات كانت موزّعة على الجماعات ، وليس ثمّة ما يمنع أن تشترك الجماعة الواحدة في أكثر من اعتراض . فما هو النّسقُ الّذي راعته الآيات الكريمة في الرّدّ على هذه الاعتراضات ؟ للآيات الكريمة طريقتها الخاصّة في الرّدّ إذ كان على النّحو التّالي :

---

(١) إذا اعتبرنا القول في الآية الأولى « مال » متكوّناً من وحدتين صوتيتين هما « ما » و « ل » فيكون كلٌّ من القسمين في الآيتين الكريمتين متكوّناً من عشر وحدات صوتيّة .

(أ) الرّد على كون الرّسول الكريم رجلاً مسحوراً ، وهو ما يشكّل الاعتراض الرّابع .

(ب) الرّد على الحضّ بأن يُلْقى على الرّسول الكريم كنزٌ أو تكون له جنةٌ يأكل منها ، وهو ما يشكّل الاعتراض الثّالث .

(جـ) الرّدّ على الاعتراض بكون الرّسول الكريم يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ، وهو ما يشكّل الاعتراض الأوّل .

(د) الرّدّ على الحضّ بأن ينزل الى الرّسول ملكٌ فيكون معه نذيراً ، وهو ما يشكّل الاعتراض الثّاني .

فما الحكمة وراء ترتيب الرّدود وفق هذا النّسق ، وليس وفق ترتيب الاعتراضات ؟ إنّ ترتيب الرّدود على هذه الاعتراضات قد خضع لحكمةٍ جليلة ، يمكن أن نلخّصها في كون الآيات قد راعت في التّرتيب التّحول المطّرد من السّهل الى الصّعب ، من البسيط إلى ما يحتاج إلى كبير فطنة وشديد حذق . ويمكن ببساطة ملاحظة ذلك حينما نضع الاعتراضات وفق الرّدّ عليها . إنها على النّحو التّالي :

الاتّهام بالسّحر . الحضّ على كون الرّسول له كنزٌ أو جنّة . الإنكار على الرّسول أن يأكل الطّعام أو يمشي في الأسواق . الحضّ على أن ينزل إلى الرّسول ملك يكون معه نذيراً . ويتعلّق بذلك طلبهم أن ينزل عليهم الملائكة أو يروا ربّهم جلّ وعلا . وقد جاء مثلاً في سورة الإسراء[1] الجمع بين هذين الطّلبين ، وذلك في قوله على لسان هؤلاء الكافرين : ﴿ **أو تأتِي باللّه والملائكة قبيلا** ﴾ .

أمّا الدّليل على أنّ اتّهام القوم للرّسول الكريم بأنّه مسحورٌ

---

(١) آية ، ٩٢ .

مغلوب على أمره ، أبْسط ما جرى على ألسنة هؤلاء الكافرين وبالتّالي ما أبسط الرّدّ عليه ، فهو أنّنا نعلم يقيناً أنّ هؤلاء الكافرين كانوا أعلم النّاس بكذبهم في تلفيقهم التّهم للرّسول الكريم ومنها تهمة السّحر ، بمعنى أن يَغْلِبَ الآخرين على أمورهم أو أن يغْلب هو على أمره ، بقوى خارجيّة غير حسنة . وإليك هذا الدّليل من السّيرة النبويّة[1] :

« ثم إنّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش وكان ذا سِنّ فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنّه قد حضر هذا الموسم وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن . قال : لا ، واللّه ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالُجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشّعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشّعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر . لقد رأينا السّحّار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : واللّه إنّ لقوله لحلاوة ، وإنّ أصله لعذق[2] وإنّ فرعه لجناة . . . . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا عُرِف أنّه باطل ، وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء

---

(١) ١/ ٢٧٠ .

(٢) العذق ، بالفتح : النّخلة . يشبّهه بالنّخلة التي ثبت أصلها وقوي وطاب فرعها إذا جني .

وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرّقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبُل النّاس حين قدموا الموسم لا يمرّ بهم أحدٌ إلاّ حذّروه إيّاه وذكروا لهم أمره » .

وهل من غرابة بعد ذلك أن يوصم هؤلاء بالظُّلم ، في أثناء عرض اتّهامهم وقبل الرّدّ عليهم . قال تعالى : ﴿ **وقال الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً** ﴾ .

فإذا تحوّلنا الى الاعتراض الثاني الّذي يتعلّق باقتراحهم أن يلْقي إليه صلّى اللّه عليه وسلم كنزٌ ينفق منه أو تكون جنّةٌ يأكل منها ، تبيّنّا بمقارنة هذا الاعتراض بسابقه أنّه ـ رغم تفاهته ـ له من زاوية القوم نصيبٌ ضئيلٌ من الجِدّ . وإنّما نقول بذلك ، لأنّا حينما نتبيّن سيطرة المادّة على القوم لا نستغرب منهم اقتراحاً كهذا ، وإنْ كنّا نلومهم أشدّ اللّوم ، لأنّهم بطبعهم يميلون إلى لغو القول ، ولم يحاولوا أن ينظروا إلى هذه المسألة من غير زاويتهم المادّيّة . لقد كان في إمكانهم هم أن ينتهوا إلى الحكمة من ذلك ، خاصّةً وهم يبصرون المسلمين ، بما في ذلك الأثرياء منهم ، قد زهدوا في هذه الحياة الدّنيا وأقبلوا على الدّار الآخرة ، وما أسعدهم بعملهم هذا وأشدّ غبطتهم به .

فإذا تحوّلنا إلى الاعتراض الثّالث المتعلّق بإنكار القوم على الرّسول الكريم أن يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق طالباً فضل اللّه تعالى ، ونظرنا إلى القضيّة من زاوية نظرة القوم المادّيين الّذين سبق إلى أفهامهم ـ ردّ فعل لانهماكهم في لذائذ الدّنيا ـ أنّ الرّسالة روحٌ خالص ، لِذا فَهُم يَصْعب عليهم أن يفهموا أنّ رسول اللّه تعالى إليهم واحدٌ من البشر ، يأكل ممّا يأكلون منه ويشرب ممّا يشربون ، وليس واحداً من الملائكة ، فالحقيقة أنّا نستطيع أن نتبيّن أنّ لهذه القضية

نصيبها من جدّ القوم الماديّين ومن هزلهم على السّواء . أمّا أنّ للقضية نصيبها من جدّ القوم ، فلأنّ اهتمامهم بالجانب المادّي من الحياة فقط ، يجعلهم بحاجةٍ إلى العون الخارجيّ ، كي يقفوا على الحكمة من إرسال اللّه تعالى الرّسول واحداً من البشر . وأمّا أنّ للقضيّة نصيبها من هزل القوم فلأنّهم بعد أن وقفوا مرّاتٍ عدّة على حقيقة الحكمة من كون الرّسول واحداً من البشر ، لم يظهروا أدنى رغبة في تقدير هذه الحكمة وإعطائها الفرصة كي تعمل عملها الحسن في أنفسهم ، بل على العكس من ذلك لم يزدادوا إلّا نفوراً واستكباراً ، واصرّوا على استفهامهم الإنكاري : ﴿ **ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق** ﴾ .

ولعلّنا تبيّنّا أنّ ثمّة نوعاً من ترابط بين هذا الاعتراض الثالث الّذي ينكر معه الكافرون كون الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ، وبين الاعتراض الرّابع الّذي يقترحون فيه أن ينزل إليه ملكٌ يشهد له بأنّه رسول ، أو أن يكون الرّسول واحداً من الملائكة ، إذ إنّ الرّسول حينما لا يأكل الطّعام ولا يمشي في الأسواق ـ حسب طلب كفّار مكّة ـ لا يكون إلّا ملكاً من الملائكة . وهم قد طلبوا ذلك صراحة حيناً ، وطلبوا المشاركة في الرّسالة بين رسولٍ من الأرض ، وملكٍ من السّماء ، كما هو الحال في هذه السّورة المباركة .

وبما أن حديث القوم عن الملائكة متنوّع ، فهم يطلبون أن يكون الرّسول واحداً من الملائكة أو أن ينزل إلى الرّسول ملك من السّماء شريكاً له ، أو على القوم ملك أو مجموعة من الملائكة ـ حدّدوا العدد أحياناً بأربعة ـ يشهدون بأنّ محمّداً رسول ربّ العالمين ، وكان طلبهم أن يروا الملائكة وسيلة لطلب أشدّ خطورة وأكثر دلالة على الخرق

والحُمْقْ ، أن يروا اللّه تعالى جهرة ، كلّ هذه الملابسات اقتضت أن يكون الرّدّ تالياً للاعتراض على كون الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ، وأن يكون الكلام متنوّعاً ومتشعّباً ومتضمّناً لما له علاقةٌ باقتراحهم أن ينزل إلى الرّسول ملك . قال تعالى : ﴿ **وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا** ﴾ ولا يخفي أنّ إنزال الملك مع الرّسول شاهداً وإنزال الملائكة على القوم شهوداً ، يكادان يكونان شيئاً واحداً لأنّ الهدف واحد هو رؤية القوم للملك أو الملائكة شهوداً بصدق الرّسول الكريم .

الرّد على الزّعم بكون الرّسول رجلاً مسحوراً .

. قال تعالى : ﴿ **وقال الظّالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾ . لقد وصم الله تعالى هؤلاء الكافرين بالظّلم لأنفسهم وللرّسول الكريم . كما وُصِموا هُمْ وكلُّ الّذين هرفوا بما لم يعرفوا ، ممّا سجّلته سورة الفرقان وممّا لم تسجّل ، بأنّهم ضالّون . ولا شكّ أنّ الآية الكريمة الّتي تصدّت للرّدّ تعتبر تسليةً للمصطفى ﷺ وتثبيتاً لفؤاده ، إذ تبدأ بخطابه عليه الصّلاة والسّلام قائلة « انظر » وفي ذلك من الدّلالة على علوّ المكانة وقرب المنزلة ما لا يخفى . فهؤلاء إن قالوا عن الرّسول الكريم ـ الآن ـ إنّ مثله مثل السّاحر ، ففي وقت آخر ، سابقٍ أو لاحق يقولون : إنّ مثله مثل الشّاعر أو الكاهن أو الكاذب أو المجنون أو المحتاج إلى ما ينفقه أو إلى ملك يشاركه مسؤوليّة الرّسالة وما إلى ذلك . إنّهم لا يكادون يستقرّون على قول ولا يثبتون على وصف إنّما يتنقّلون من ضلالٍ إلى ضلالٍ ومن حيرةٍ إلى حيرة ، مع أنّ سبيل الحقّ أبلج واضح ، بيّنه لهم الرّسول الكريم الّذي أنزل الله تعالى عليه

القرآن الحكيم ، فما أسهل الاقتناع به وسيرأصحاب العقول النيّرة في ضوئه .

وواضحٌ أنّ الرّدّ سريعٌ وفوريّ ، على غرار الرّدّ في القسم الأوّل من السّورة على اتهام الكافرين للقرآن الكريم بأنّه إفكٌ افتراه الرسول الكريم وأعانه عليه قومٌ آخرون ، وبأنّه أساطير الأوّلين اكتتبها . إنّ للرّدّ الفوريّ هناك كبير فضل في الانتهاء إلى فهم الاعتراض الّذي تدحضه الآية الكريمة فوراً .

الرّدّ على الحضّ بأن يُلقى إلى الرّسول كنزٌ أو تكون له جنّة :

قال تعالى : ﴿ **تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً * بل كذّبوا بالسّاعة واعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيراً * إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً * وإذا ألْقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كبيراً * قُلْ أذلك خَيْرٌ أم جنّة الخلد الّتي وُعِدَ المتّقون ، كانت لهم جزاءً ومصيراً * لهم فيها ما يشاؤون خالدين * كان على ربّك وَعْداً مسؤولاً * ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السَّبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نسوا الذّكر وكانوا قوماً بوراً * فقد كذّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صَرْفاً ولا نصراً * ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً** ﴾ .

وواضح أن الآية الكريمة الأولى فقط ، هي الّتي تضمنت الرّدّ ، بينما بينت الآية التّالية العلّة الحقيقيّة وراء اعتراضات الكافرين وهي أنّهم قد كذّبوا بالسّاعة ، فليست العلّة إذن أنّ الرسول الكريم فقير ،

وما لبثت الآيات أن بيّنت العذاب الأليم الّذي ينتظر القوم ، وقارنت ذلك بالنّعيم المقيم الّذي ينتظر أصحاب الجنّة . كما بيّنت نوع الحساب الّذي ينتظرهم ، وهم المشركون باللّه تعالى سواه ، والسّبب في الإشراك ، ووضّحت الخزي الّذي ينتظرهم يوم القيامة والهوان .

فمع الآية الكريمة الأولى المتعلّقة بالرّدّ ، قال تعالى : ﴿ **تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً** ﴾ . إنّ الآية تبدأ بجملة « تبارك » الخاصّة بالذّات العليّة ، والّتي تعني أنّ ثمّة خيراً كثيراً ونعماً سابغة . وسبق أن لاحظنا ذلك بشأن أولى آيات السّورة وسنلاحظ ذلك أيضاً بشأن الآية الحادية والسّتّين ، فما الّذي تدلّ عليه الجملة في الآية الكريمة التي نحن بصددها ؟ حيث إنّ الجملة في الآيتين الأخريين تدلّ على نعم ملموسة ، فهل لها ، في ضوء ذلك ، دورٌ في توجيه المعنى وجهةً معيّنة ، إذ المعروف أنّ الكثيرين قد ذهبوا إلى أنّ الآية الكريمة تتحدّث عمّا كان في إمكان الذّات العليّة أن تقدّمه للنبيّ ﷺ في الدّنيا من جنّات وقصور بينما ذهب البعض الى أنّها تتحدّث عمّا سيكون نصيباً له ، عليه الصّلاة والسّلام ، يوم القيامة . لا شكّ أنّ هذه الجنّات والقصور سواءٌ كانت في الدّنيا أو الآخرة ، هي من مظاهر نعمه عزّ وجلّ على عبده ﷺ . ولو أنّها كانت من نصيبه ، عليه الصّلاة والسّلام ، في هذه الحياة الدّنيا فهي ، رغم ضخامتها ، شيءٌ بسيطٌ للغاية بالقياس لما منّ الله تعالى به ، مثلاً ، عليه ﷺ ، من نعمة الرّسالة ، وكونه قد غفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر. ولو أنّها كانت من نصيبه عليه الصّلاة والسّلام في الحياة الأخرى ، فهذا جزاءٌ يفهمه المؤمنون بداهةً ، لأنّهم أنفسهم ، لهم بعون الله تعالى ، من ذلك النّعيم نصيب . فسواءٌ فهم من الآية الكريمة أنّها متعلّقةٌ بهذه الحياة أو تلك ، فإنّ ثمّة خيراً كثيراً من نصيبه عليه الصّلاة والسّلام . ومن ثمّ

تقف جملة تبارك ، بشأن تعيين إحدى الحياتين ، على مفترق الطّريق .

فكيف نستطيع إذن أن نعيّن إحدى الحياتين ونقول بالتّالي إنّها مرتبطةٌ بما كان في الإمكان أن يصحّ نصيباً له ﷺ من نعيم الحياة الدّنيا ، بأكثر ممّا اقترح الكافرون ، أو إنّها مرتبطةٌ بنصيبه في الحياة الأخرى ممّا تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين ؟ الحقيقة أنّ الوسيلة إلى ذلك يمكن أن تكون من زاوية الّذين أرادت هذه الآيات الكريمة أن تردّ عليهم . أيّ الحياتين هم بها يؤمنون ولها يهتمون ؟ في ضوء قوله تعالى عن هؤلاء الكافرين في الآية التالية : ﴿ **بل كذّبوا بالسّاعة** ﴾ نستطيع أن نقول : إنّ الحياة الأخرى ليس لها وجودٌ في يقين هؤلاء الكافرين ، وبالتّالي هم يفهمون هذه الآية الكريمة على أنّها مرتبطةٌ بهذه الحياة الدّنيا الّتي يهتمون بها والّتي يحيون فيها ويموتون . ويفاجأ هؤلاء بأن ما اقترحوا في حقّه ﷺ من كنزٍ ينزل إليه وجنّة يأكل منها ، كان في مقدور الذّات الإلٰهيّة أن تحقّق خيراً منه للمصطفى ﷺ ، امتداداً للاصطفاء بأكبر خير ، ألا وهو نعمة الرّسالة ، ولكنّ الّذي حال دون ذلك هو أنّ الدّنيا ليست بشيءٍ ذي قيمةٍ في نظره عليه الصّلاة والسّلام ، وما أكثر ما صرح بذلك عليه الصّلاة والسّلام . وحينما استشير في ذلك فضّل نعيم الآخرة على الحياة الدّنيا الّتي هي لعبٌ ولهوٌ وزينة وتفاخرٌ وتكاثرٌ في الأموال والأولاد[1] في ضوء هذا التّوضيح نستطيع أن ننتهي إلى أنّ هذه الآية الكريمة متعلّقة بالنّعيم الّذي كان في الإمكان أن يصحّ نصيباً له عليه الصّلاة والسّلام في هذه الحياة الدّنيا . ومثل هذا الفهم هو الّذي يزعج كفّار مكّة ويغيظهم ، لأنّهم يقترحون شيئاً محدوداً فتعرض السّماء أشياء غير محدودة .

---

(١) انظر مثلاً الرّسالة المحمّديّة ص ١٧٥ فما بعدها بشأن زهده عليه الصلاة والسّلام .

ويمكن أن نستأنس في هذه المناسبة ، دليلاً على ما نقول ، بما جرى على ألسنة المكيّين بشأن تأثير هجاء شعراء النبيّ ﷺ الثلاثة ، حسّان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، في نفوسهم قبل الإسلام وبعده . حينما كانوا غير مسلمين كان أشدّ الهجاء إيلاماً لهم شعر حسّان بن ثابت وكعب بن مالك ، لأنّهما يهجوان كفّار قريش في الطّريقة التّقليديّة . وحينما اعتنقوا الإسلام وفقهوه تبيّن لهم خطأ فهمهم السّابق إذ كان أشدّ الهجاء إيلاماً هو شعر عبد الله بن رواحة الّذي كان يعيّرهم بالكفر والإعراض عن الإسلام ورسوله ﷺ الّذي أنزل عليه القرآن الكريم . وسنتبين مستقبلاً دليلاً على ما نقول أنّ جملة «شاء» في الآية الخامسة والأربعين من السورة وجملة « شئنا » في الآية الحادية والخمسين تستعملان في الطريقة ذاتها تنفي الأولى سكون الظلّ وتنفي الثانية إرسال الله تعالى نذيراً سوى محمّد ﷺ .

ومع أنّ هذه الآية الكريمة، من زاوية الّذين أراد القرآن الكريم أن يردّ عليهم ، تعْني أنّ المراد بالجنّات والقصور ، في هذه الحياة الدّنيا ، لأنّ هذا الفهم هو الّذي يسوء الكافرين ، فإنّ لهذه الآية الكريمة إيحاءها بأنّ هذه الجنّات والقصور ، الّتي لم تشأ العناية الإلهيّة جعلها نصيباً له صلّى اللّه عليه وسلّم في الحياة الدّنيا ، لهوان هذه الحياة على اللّه تعالى الّتي هي دار تمحيص للمؤمنين المتقين ، ستكون من نصيبه صلّى اللّه عليه وسلّم ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا مَنْ أتى اللّه بقلب سليم . ما أكثر الأدلّة في القرآن الكريم ، وفي السّنّة المطهّرة أيضاً ، على هوان هذه الحياة الدّنيا ، وإليك هذه الآيات من سورة الزّخرف[1] من الأدلّة على ذلك . قال تعالى : ﴿ **ولولا أن يكون**

---

(١) آيات ، ٣٣ ـ ٣٥ .

النّاس أمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرّحمن لبيوتهم سقفاً من فضّة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتّكئون * وزخرفاً ، وإن كلّ ذلك لمّا متاع الحياة الدّنيا والآخرة عند ربّك للمتّقين ﴾ . وقال تعالى في سورة يونس[1] : ﴿ إنّما مثل الحياة الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل النّاس والأنعام حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمْس ، كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يتفكّرون ﴾ وقال تعالى في سورة الأنعام[2] : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يتضرّعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هُمْ مبلسون * فقُطِع دابر القوم الّذين ظلموا والحمد للّه ربّ العالمين ﴾ .

وإنّ قوله تعالى في الآية : ﴿ إن شاء ﴾ درسٌ على المؤمن أن يعيه وهو أنّ كلّ شيء بإرادته عزّ وجلّ ، فعليه أن يعلّقه بمشيئته جلّ وعلا . وقد كانت سورة الكهف أكثر صراحة في الدّعوة إلى هذا التّعليق بالمشيئة ، قال تعالى[3] : ﴿ ولا تقولنّ لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غداً إلاّ أن يشاء اللّه ، واذكر ربّك إذا نسيت ، وقُلْ عسى أن يَهْدِين ربّي لأقْرَب من هذا رشدا ﴾ .

ولعلّ سؤالاً نحويّاً يخطر بالبال وهو لماذا جُزمت جملة

---

(١) آية ، ٢٤ .

(٢) آيات ، ٤٢ ـ ٤٥ .

(٣) آية ، ٢٣ ، ٢٤ .

« ويجعل » والجواب على ذلك هو أنّها معطوفةٌ على موضع جملة جواب الشّرط المجزومة أساساً . والتقدير : وإن يشأ يجعل لك قصوراً[1] .

على أنّ القرآن الكريم يقرّر أنّ هؤلاء الكافرين ، إنّما كانوا في حقيقة الأمر يتلهّون بهذه الاقترحات والأمثال الّتي ضربوها له صلّى اللّه عليه وسلّم ، لأنّهم لم يكونوا مؤمنين به عليه الصّلاة والسّلام أصلاً ، ولا بالبعث بعد الموت ، ومعنى ذلك أنّهم يعتقدون بأنّ هذه الحياة غايةٌ في ذاتها . قال تعالى : ﴿ **بل كذّبوا بالسّاعة واعتدنا لمن كذّب بالسّاعة سعيراً** ﴾ .

وما الّذي يُنْتظر من أناسٍ هذا اعتقادهم ؟ الّذي ينتظر أن يرفضوا كلّ دعوةٍ مهما تكن خيّرة ما دامت تحول بينهم وبين أن ينالوا في هذه الحياة كلّ متعة . وحيث إنّهم لم يكونوا مصدّقين أساساً بأنّه صلّى اللّه عليه وسلّم رسول ربّ العالمين وأنّ بعد الموت بَعْثاً فحشراً للحساب ، كي يثاب المحسن ويعاقب المسيء ، فإنّ القوم قد خاضوا مع الخائضين ، وتورّطوا أحياناً فيما لا يتورّط فيه جادٌّ ولا عاقل . كأن يطلبوا أن ينزل عليهم الملائكة أو أن يروا ربّهم عزّ وجلّ على ما نحو ما قرّرت هذه السّورة مثلاً وسورة الإسراء .

والّذين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ، لا يؤمنون بجنّة ولا نار ويعملون بالتّالي ما يحلو لهم . ولمّا كانت أعمالهم الّتي لا تتنافى مع تعاليم الإسلام ، قد جعلها اللّه تعالى هباءً منثوراً . فلن يبقى لهم سوى

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ٦/٤٨٤ والكشّاف ٢/٤٠١ .

الأعمال السّيّئة الّتي سيصادفونها يوم القيامة بين أيديهم مسجّلة كلّها في كتاب أعمالهم . وسيكون موقفهم على نحو ما جاء في مثل قوله تعالى من سورة الكهف[1] : ﴿ **وَوُضِعَ الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربُّك أحداً** ﴾ . فالّذي هو من نصيب هؤلاء الكافرين إذن تلك النّار الشّديدة الاستعار . ومعنى هذا أنّنا نسير في ضوء المعنى الّذي توحي به لفظة النذير في الآية الأولى .

ولا شكّ أن مفاجأة هؤلاء الكافرين بحقيقة البعث الّتي أنكروا عنيفة للغاية ، ويتجلّى شيء من استيائهم البالغ لهذه الحقائق المرّة في فرارهم جهد الطّاقة عن مواجهة الواقع الأليم ، ومن ذلك ما يمكن أن يفهم من هذه الآية الكريمة التّالية ، قال تعالى : ﴿ **إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً** ﴾ . فهؤلاء الكافرون يحاولون جاهدين ، في ذلك الوقت العصيب ، تعطيل حاسّة البصر ، بصَرْف نظرهم عمّا يكرهون . ولكن أنّى لهم أن يهربوا من الواقع ، وأنّى لهم أن يتحكّموا في حاسّة السّمع الّتي تلي حاسّة البصر في العمل بمثل هذه المناسبة والّتي تعمل رغم إرادة صاحبها، مهما يبذل من مجهودٍ بقصد تعطيلها . إنّ هذه الحاسّة تمتلىء بالصّوت المزعج الصّادر من جهنّم الّتي تكاد تتميّز من الغيظ حنقاً على الكافرين وشهوةً في الانتقام منهم . وكأنّها حينما تراهُمْ من مكانٍ بعيد ، ذلك المغيظ المُحْنَق الّذي يغلي صدره كالمِرْجل على خصمه . فلا بدَّ إذن من أن يتنفّس في هيئة الزّفير أو الشهيق . أمّا هيئة الزّفير فقد أشارت إليها آية سورة الفرقان هذه . وأمّا

---

(١) آية ٤٩ .

هيئة الشّهيق فقد أشارت إليها آية سورة الملك[1] قال تعالى : ﴿ **إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور** ﴾ .

وإنّ إسناد الرّؤية إلى النّار في آية الفرقان دليلٌ على فرط اهتمامها بالقوم واستعدادها لهم وهم الّذين يحاولون جاهدين تفاديها حتّى بأبصارهم فَضْلاً عن أجسادهم . وأنّى لهم شيء من ذلك وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **وإن منكم إلاّ واردها كان على ربّك حَتْماً مقضيّاً * ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا ونذر الظّالمين فيها جثياً** ﴾ . وقد جاء في البحر المحيط[3] بشأن رؤية النّار في الآية الكريمة : « **إذا رأتهم ، قيل هو حقيقة ، وأنّ لجهنّم عينين** ، ورُوي في ذلك أثر ، فإن صَحَّ كان هو القول الصّحيح ، وإلاّ كان مجازاً ، أي صارَتْ منهم بقدر ما يرى الرّائي من البعد ، كقولهم ، دُورُهم تتراءى أي تتناظر وتتقابل ومنه ، لا تتراءى ناراهما » .

ونحن في حقيقة الأمر أميل إلى كون الكلام هنا على حقيقته . ولا مانع من الاستئناس بما يسير في وجهةٍ غير بعيدة ، أعني ما سجّلته سورة الإسراء[4] من كون كلّ ما في السّماوات السّبع والأرض يسبّح بحمد ربّه ، لذا استعمل ضمير العقلاء في قوله تعالى : ﴿ **تسبّح له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنّه كان حليماً غفوراً** ﴾ . فبقدرته عزّ وجلّ جهنّم ترى ، وبقدرته عزّ وجلّ السّماوات والأرض ومن فيهنّ ، يسبح بحمده .

---

(١) آية ، ٧ .

(٢) سورة مريم ، ٧١ ، ٧٢ .

(٣) ٦/٤٨٥ .

(٤) آية ، ٤٤ .

وينبغي أن تكون الأصوات المنبعثة من جهنّم غايةً في الارتفاع ، بديل أنّه أمكن للأذن أن تسمع الصّوت المنبعث منها حينما ترى للوهلة الأولى الكافرين البعيدين منها . والمعروف أنّ الإبصار أبعد مدىً وأوسع انتشاراً .

وإذا كان الكافرون قد أعرضوا عن جهنّم بأبصارهم . فليس معنى ذلك أنّهم يستطيعون أن ينأوا عنها بأجسامهم ، إذ لا يلبثون أن يُلْقَوْا فيها ، وقد جمعت الأغلال أيديهم إلى أعناقهم ، ولا يملكون وقتها سوى الاستغاثة ولا مجيب .

ونودّ أن نقف عند حرف الجرّ « من » في الآية الكريمة ، قال تعالى : ﴿ **وإذا ألْقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً** ﴾ . إنّ ثمة عدولاً عن حرف الجرّ « في » إلى حرف الجرّ « من » دليلاً على أنّ هؤلاء الكافرين يُلْقَوْن من جهنّم في مكانٍ معدٍّ لهم ، مناسبٍ لسوء صنيعهم ، لائقٍ بهم . فبالإضافة إلى القيود الّتي تقيّد من حركتهم هم يلقون من جهنّم في أمكنةٍ غايةٍ في الضّيق .

وحيث إنّ العذاب متنوّعٌ ومستمرّ ، فإنّهم يُطْلَب منهم ، استهزاءً ، أن يدعوا ـ كعادتهم في الدّنيا وقت الفزع ـ بالثّبور وعظائم الأمور ، ليس مرّةً واحدة ، وإنّما مرّات عدّة وفق العذاب المتنوّع المستمرّ المتجدّد . قال تعالى : ﴿ **لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً** ﴾ . وينبغي أن تكون لفظة اليوم في الآية مؤلمة للكافرين جدّاً ، لأنّهم في الحياة الدّنيا ينكرون السّاعة ويوم الحساب والجزاء ، وها هم أولاء، يفاجأون بأنّ ذلك اليوم لا كالأيّام إذ يلوح بأنّه لا نهاية له .

ويلاحظ أنّ لفظة « هنالك » من قوله تعالى : ﴿ **دعوا هنالك ثبوراً** ﴾ تتمشّى مع ذلك المكان الضيّق الّذي يُلْقى فيه الكافرون ، وأنّ لفظة اليوم الّذي عرفنا صفته ، يتمشّى معه الثّبور الكثير الّذي لا أوّل له ولا آخر بسبب طول ذلك اليوم وتجدّد العذاب فيه . فكأنّ الثّبور ـ بمعنى الهلاك ـ المحدود للوهلة الأولى يتمشّى مع المكان المحدود ، والثّبور الكثير يتمشّى مع الزّمان غير المحدود . قال تعالى : ﴿ **وإذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً** ﴾ .

ودعاء الثّبور نداؤه ، أن يقال : واثبوراه ، أي تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك[1] .

والقرآن الكريم يستعير التّعبير الّذي يجري على ألسنة العرب ـ الّذين نزل القرآن بلسانهم ـ في مثل هذه المناسبة ، حينما يصادفون في حياتهم أمراً خطيراً . ومن الجائز أن يستعملوا تعبيراً أو تعابير أخرى مماثلة . وينبغي أن يكون سواهم مستعملاً التّعبير الخاصّ به في مثل هذا الظّرف . فاستعمال القرآن الكريم في هذه المناسبة لفظة الثّبور ، الّتي تسبق إلى ألسنة العرب في مثل هذه المناسبة ، بقصد تقريب المعنى للأذهان ، وتبيين طريقة ردّ الفعل عند المجرمين وقت إلقائهم في المكان الضيّق من النّار ، واستعارة القرآن الكريم لما يجري على ألسنة العرب من طبيعة أهداف القرآن الكريم الّذي يسّره ربّ العزّة للذّكر بلسانٍ عربيّ مبين كي يفهمه أوّلاً العرب ، ويقوموا بعد ذلك بما هم مكلّفون به من مهمّة إيقاف النّاس على ما منّ الله تعالى به عليهم من فهم لمعاني الكتاب العزيز ومراميه ، والدّعوة إلى الدّين الّذي

---

(١) الكشّاف ٢/٤٠١ .

ارتضى ربّ العـزّة لعباده . وسنتبين مستقبـلاً أن هذه السّـورة الكـريمـة تراعي هذه الاعتبارات في العديد من المواضع .

وتمشّياً مع طبيعة الإنذار الّذي نبّهت إليه الآيـة الأولى وصُبِغَتْ به أجواء الآيات بعـد ذلك ، يجيء في هيئـة الاستفهام التّـوبيخيّ ، إنذاراً لهؤلاء الكفّار وتحذيراً ، قولـه تعالى : ﴿ **قُـلْ أذلك خَيْـرٌ أم جنّة الخُلْد الّتي وُعد المتّقون ، كانت لهم جزاءً ومصيراً** ﴾ . والخطاب في « قُلْ » للمصـطفى صلّى اللّه عليـه وسلّم . والآيــة تنصّ على جـزاء المتّقين ومصيرهم الّذي يئولون إليه خالدين في جنّات النّعيم ، وذلك في مقابل السّعير الّتي أُعِدَّتْ جـزاءً للكافـرين ، والمكان الضيّق من جهنّم الّـذي سيلقون فيه . أين هذا الخزي والعذاب الشّديد من الجنّة الّتي عـرضها كعرض السّماوات والأرض . قـال تعالى[1] : ﴿**سـابقوا إلى مغفـرةٍ من ربّكم وجنّـةٍ عرضهـا كعرض السّمـاء والأرض أُعِدّت للّذين آمنـوا باللّهِ ورسله ، ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم**﴾ .

وفي الجنّـة مـا لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خـطر على قلب بشـر . وكلُّ ذلـك من نصيب هؤلاء المتّقين الّذين ينـالـون مـا يشتهـون حيث لا يـذوقون المـوت إلاّ الموتـة الأولى في الدّنيـا : ﴿**لهم فيهـا مـا يشاءون خالدين ، كان على ربّك وعداً مسئولاً** ﴾ .

وحينما يفكّر العاقل في نعيم الدّنيا الزّائل وعمره فيها المحـدود ، ويقارن بين ذلك وبين ما أعدّ اللّه تعـالى للمتّقين من نعيمٍ مقيم ، فإنّـه لن يخطر بباله أبداً بيع الخلود بالـزّوال والنّعيم المقيم بالنّعيم المحـدود المشوب بالأكـدار . وَمَنِ الّذي يَعِـدُ بكُلّ ذلـك النّعيم المقيم ؟ إنّه ربّ

---

(١) سورة الحديد ، ٢١ .

السّماوات والأرض خالق الجنّة الّتي عرضها كعرض السّماء والأرض . ويبلغ تأكيد الآية الكريمة لوقوع ذلك النعيم للدّرجة الّتي يجيء معها قوله تعالى : ﴿ **كان على ربّك وعداً مسئولاً** ﴾ . فهذا النّعيم المقيم ، سيكون يوم القيامة من نصيب المتّقين ، وهو لثبوت تحقّقه ، بإرادة مالك المُلك الّذي وَعَد به ، بمنزلة ما هو حقٌّ ثابت ، لصاحبه ، إن شاء ، أن يسأله ويطالب به ، في الموعد المضروب ، مِمَّنْ تفضّل بالوعد أن يَمُنّ به . وهل يدخل النّاس الجنّة بأعمالهم أم بفضل اللّه تعالى ورحمته ؟ بفضل اللّه تعالى ورحمته ، إذ ليس ثمّة وجهٌ للمقارنة بين أعمال الإنسان الحسنة وبين ما يقابل ذلك من ثوابٍ جزيل يصل إلى سبعمائة ضعف . ومن الذي يعد بالوفاء بالأجر ؟ إنّه مالك المُلْك عالم السّرّ في السّماوات والأرض جاعل الوفاء من سمات عباده الصّالحين . أفلا يمكن أن يفهم ، بعد كل ذلك ، أنّ استخدام لفظة « مسئولاً » في الآية الكريمة ، من قبيل تقريب المعنى لنا نحن البشر ، الّذين نلجأ ، في حياتنا اليوميّة ، إلى سؤال حقوقنا ، حينما نكون واثقين من استحقاقنا لها . وهب أنّنا في هذه الحياة قد أُعطينا حقوقنا كاملة ، فهل ثمة من مجالٍ لطلب هذه الحقوق ؟ لا بطبيعة الحال . فكيف إذا كُنّا نُعْطي أضعاف ما نستحقّ ؟ لا شكّ أنّ ذلك يقطع ألسنتنا . وهذا هو الّذي يحدث يوم القيامة . فليس ثمّة من حاجةٍ إلى السّؤال أصلاً ، وإنّما استعملت الآية الكريمة لفظة « مسئولاً » بقصد تقريب المعاني لنا نحن البشر ، وحثّنا على عمل الصّالحات .

لعلّنا لاحظنا أنّ الحديث عمّا ينتظر المجرمين يوم القيامة ابتدأ بالنّصّ على النّار المُسْتَعِرَةِ الّتي أعدّ اللّه تعالى لهم ، فوصف حال النّار وحالهم فيها . ويَسْبِقُ هذه العمليّة البعث فالحشر للحساب . وإنّ الانتقال من تسجيل الآيات الكريمة لما تلهىّ به هؤلاء المجرمون في

الدّنيا ، من عدم تصديق للرّسول الكريم والقرآن الحكيم ويوم البعث ، إلى العقاب في نار جهنّم رأساً ، من المعالم البارزة الّتي تتمشى مع لفظة « نذير » الّتي جاءت في الآية الأولى من السّورة . وبعد أن يفعل هذا الانتقال المفاجىء في الأنفس فعله المرجوّ ، تعود الآيات الكريمة إلى ملء ما تركن من فراغ ، أعْني الحديث عن الحشر فالحساب ، قال تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون اللّه فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السّبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نسوا الذّكر وكانوا قوماً بوراً * فقد كذّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً * ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً** ﴾ .

ما أجلّ شأن ذلك اليوم ، المجموع له النّاس المشهود . ومن الأدلّة على ذلك ابتداء الآية الكريمة به : ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله** ﴾ وما أضعف الخلائق أجمعين في ذلك الموقف المهيب الرّهيب ، إذ يُحْشر العابدون والمعبودون من دون اللّه تعالى ، وفيهم الملائكة وعباد اللّه تعالى الصّالحون . ويوجَّه إلى الملائكة وعباد الله تعالى الصّالحين السّؤال الّذي تتضمّن طريقة عرضه الجواب عليه . فهو لا يقتصر على الشّقّ الأوّل الّذي يسأل عن احتمال كونهم السّبب في الضّلال الّذي وقع فيه المجرمون ، إنّما يُرْدف ذلك حالاً بالشّقّ الثّاني المتضمّن للجواب الصّحيح ، والّذي يسأل عن احتمال كون الضّالّين أنفسهم سبباً فيما تورّطوا فيه من ضلال ، فظلموا أنفسهم وظلموا الأبرياء من عباد الله تعالى الصّالحين . إنّ انتقال القرآن الكريم سريعاً من احتمالٍ إلى احتمالٍ أو من حالٍ إلى حال من وسائله الّتي يُعْرف بها أنّ الطّور الثّاني هو الصّحيح ومن ثمّ يكون التفصيل فيه والتّوضيح والقول الفصل فيه . وهذه هي الآية الكريمة الّتي تشمل الطّرفين في

القضيّة واحتمالي الاتّهام ، قال تعالى : ﴿ **ويوم يَحْشُرهم وما يعبدون من دون اللّه فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السَّبيل** ﴾ ولأنّ السّؤال عن الفاعل وليس عن الفعل ، جاء ذكر الفاعل المحتمل بعد أداة الاستفهام .

وهذه الآية الكريمة تشمل ردّ البريء المتّهم ، وقد أخرس الحقّ خصمه وعقد لسانه . قال تعالى : ﴿ **قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نسوا الذّكر وكانوا قوماً بورا** ﴾ . وهذه الآية الكريمة تشمل الجزاء والحكم العادلين ، قال تعالى : ﴿ **فقد كذّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرْفاً ولا نصراً ، ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيرا** ﴾ .

فإذا عُدْنا إلى الآية الكريمة الّتي تشمل ردّ البريء المتّهم تبيّن أنّها تتحدّث عن كلٍّ من البرىء والمتّهم . أمّا البرىء فيعنيه القول : ﴿**قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء**﴾ وأمّا المتّهم فيعنيه القول : ﴿ **ولكن متّعتهم وآباءهم حتّى نسوا الذّكر وكانوا قوماً بورا** ﴾ .

ويمكن أن يلاحظ على ما يعني البريء أشياء . منها أنّ أوّل ما يجيء على لسان البريء لفظة « سبحانك » الّتي تفيد تنزيهه عزّ وجلّ عن الولد والشّريك ، وعن كلّ ما لا يليق به عزّ وجلّ ، فهي أنسب ما يجري على ألسنة هؤلاء المتّهمين بأنّهم السَّبب في الإشراك به عزّ وجلّ غيره ، « فأنّى لهم أن يقع منهم إضلال أحدوهم المنزّهون المقدّسون ، أو يكون أحدٌ منهم ندّاً ، وهو المنزّه عن النِّدِّ والنّظير»[1]

---

(١) البحر المحيط ، ٦/٤٨٨ .

ومنها أنّ مجيء القول « لنا » الّذي كان يصحّ للكلام أن يستقيم بدونه ، ضروريّ ، لأنّه معمِّقٌ لتبرئتهم من ناحية ، ولأنّه في مقابل القول « أأنتم » في الآية السّابقة ، من ناحية أخرى . وإنّ الشّيء نفسه يقال عن حرف الجرّ « من » الدّالّ على التّبعيض ، والدّاخل على لفظة أولياء ، لأنّ نفي البعض أبلغ من نفي الكلّ . ومنها أنّ طرد المتّهمين للاتّهام غايةٌ في الإقناع ، إذ المعنى « ما كان ينبغي لنا أن نتّخذهم من دونك أولياء »[1] فلا موافقة بين عمل أولياء الله تعالى وقولهم وبين اتّهام الخصوم لهم . جاء في سورة آل عمران[2] قوله تعالى : ﴿ **ما كان لِبَشَرٍ أن يؤتيه اللّه الكتاب والحُكم والنُّبوة ثمّ يقول للنّاس كونوا عباداً لي من دون اللّه ولكن كونوا ربّانِيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنّبيّين أرباباً ؛ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ .

ويمكن أن يلاحظ على ما يعني الظّالم أشياء . منها أنّ إلقاء البريئين المسئوليّة على المتّهمين الحقيقيّين واجبٌ تُمْليه طبيعة الحقوق . وإذا كان الدّفاع هنا عامّاً ، ففي مناسباتٍ أخرى أكثر تخصيصاً . ومن ذلك ـ مثلاً ـ ما جرى على لسان عيسى ابن مريم عليهما السّلام . قال تعالى في سورة المائدة[3] : ﴿ **وإذ قال اللّه يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنّاس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون اللّه ، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما نفسك إنّك أنت علاّم الغيوب . ما**

---

(١) تفسير الطّبريّ ، ١٨/١٤٣ .
(٢) آية ، ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) آيات ، ١١٦ ـ ١١٩ .

قُلْت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا اللّه ربّي وربّكم ، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلمّا توفّيتني كنت أنت الرّقيب عليهم وأنت على كلّ شيءٍ شهيد . إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم ينفع الصّادقين صدقهم ، لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ .

ومنها أنّ التّرف من أهمّ أسباب انحراف الجماعات والأمم ، فبدلاً من أن يقوموا بواجب شكر النّعمة ، يبادلون الإحسان بإساءاتهم . وهم لا يقفون في العادة عند منع الإحسان ، بل يتعدّون ذلك إلى بذل السّيّئات . لذا كان انحراف المترفين في الأمّة ، حينما لا تكون هناك الفئة الّتي تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، من أهم أسباب الدّمار الّذي يحيق بالأمّة كلّها ولا يقتصر على الظّالمين خاصّة . وما ذلك إلاّ لأنّ الظّالمين لم يُضْرب على أيديهم ، فانتهى الأمر بسفينة الأمّة إلى أن غرقت . وقد عبّرت سورة الإسراء[1] عن كون المترفين سبب هلاك الأمّة في قوله تعالى : **﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا ﴾** .

ومنها أنّ ذكر الآباء إضافة إلى الأبناء في قوله تعالى : **﴿ ولكن متّعتهم وآباءهم ﴾** دليلٌ على أنّ الانحراف لا يحدث طفرةً واحدة ، ولا يُحَسُّ به لأوّل وهلة . لذا فقد يُخْدَع السّاذج بحكم الإلْف والعادة عن حقيقة الانحراف . ولو أمكنت المقارنة بين مختلف الأحوال في أزمنةٍ متباعدة ، لتبيّنت الوجهات الحقيقيّة المتعدّدة لسير الأمّة ،

---

(١) آية ١٦ .

ولسهلت المقارنة وتقدير درجات السّموّ ودركات الانحطاط . فواجب كلّ مسلمٍ أن يضع في اعتباره المدى البعيد فيما يأخذ وفيما يدع ، أن يتّقي اللّه تعالى وليقل قولاً سديداً ، فإنّ له حسناتٍ مقابل الإحسان . وعليه سيّئاتٍ مقابل الإساءة إلى يوم القيامة . قال تعالى[1] : ﴿ **إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين** ﴾ وقد حذّر اللّه تعالى في مواضع من كتابه العزيز ، المسلمين من أن يتورّطُوا ، بسبب طول الأمد على بزوغ نور الإسلام الدّين الّذي رضي الله تعالى لعباده ، فيما تورّط فيه أتباع الكتب السّماوية السّابقة . قال تعالى في سورة الحديد[2] : ﴿ **ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه وما نزل من الحق ولا يكونوا كالّذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون** ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النّاس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ومنافع للنّاس وليعلم اللّه من ينصره ورسله بالغيب ، إنّ اللّه قويٌّ عزيز * ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذرّيّتهما النّبوّة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون * ثم قفّينا على آثارهم برسلنا وقفّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الّذين اتّبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيّةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان اللّه فما رعوها حقّ رعايتها فآتينا الّذين آمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون * يا أيُّها الّذين آمنوا اتّقوا اللّه وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ، واللّه غفورٌ رحيم** *

---

(١) سورة يس ، ١٢ .

(٢) آية ، ١٦ .

(٣) سورة الحديد ، ٢٥ ـ ٢٩ .

لئلا يعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرون على شيءٍ من فضل اللّه وأنّ الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء ، واللّه ذو الفضل العظيم﴾ .

وتأمّل المدى الخطير للانحراف . إنّهم نسوا تماماً ما اعتاد أن يذكّر السّابقين الأوّلين من كتابٍ سماويّ أو تعاليم لرسول . وكانت النّتيجة الحتميّة أن غدوا يوم القيامة قوماً هَلْكى لا محالة .

وإذا كان السّؤال التقريريّ قد جاء في آية والجواب في آية ، فإنّ القرار العادل قد جاء على لسان الحقّ في آية ، قال تعالى : ﴿ **فقد كذّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صَرْفاً ولا نصراً ، ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً** ﴾ . وبديهيّ أنّ الآية الكريمة هذه تتكوّن من ثلاثة أقسام . الأوّل يوافق قول البريء المتّهم ، وفيه تبكيتٌ للكذّاب الظّالم : ﴿ **فقد كذّبوكم بما تقولون** ﴾ والثّاني يلخّص الحكم العادل : ﴿ **فما تستطيعون صَرْفاً ولا نصراً** ﴾ والثّالث بمثابة الإنذار لكلّ من وافق حاله حال هؤلاء المشركين كي يفرّ إلى اللّه تعالى ويتوب إليه قبل فوات الأوان : ﴿ **ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً** ﴾. وهذه النّظرة السّريعة للآية تحتاج إلى أن تتبعها أخرى أقلّ سرعة .

وأوّل ما يلاحظ أنّ الآية تتحوّل إلى ضمير الخطاب وكان الحديث من قبل يتعامل مع ضمير الغائبين غالباً . وبالإضافة إلى أنّ الالتفات في ذاته محمود ، لقدرته على شدّ الانتباه ، فإنّ الالتفات هنا إلى ضمير المخاطب ، وهو أشدّ قوّة من ضمير الغائب ، لأنّ له القدرة هنا على تخيّل أنّ الخطاب يوجَّهُ أمامنا للكاذبين . بل إنّه بشأن القسم الثالث قادرٌ على حملنا على الإحساس بأنّ الكلام موجّهٌ الى كلّ ظالمٍ في هذه الحياة الدّنيا . فليس التحوّل فقط من ضمير إلى ضمير أقوى . بل من حالةٍ قويّةٍ لهذا الضّمير إلى حالةٍ أخرى أقوى ، هي لبّ الهدف

من قصّ كلّ ما يحدث للمشركين يوم القيامة ألا وهو الإنذار ﴿ **ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً** ﴾ . وهذا الإنذار هو ذات الإنذار الّذي نصّت عليه الآية الأولى من السّورة ، فثمّة وحدةٌ في الاتّجاه .

وهذا القسم : ﴿ **فقد كذّبوكم بما تقولون** ﴾ على إضمار القول وتقديره : فقلنا قد كذّبوكم بما تقولون . وعلى غراره قول الشّاعر :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثمّ القفول فقد جئنا خراسانا

أي فقلنا قد جئنا[1] والّذين كذّبوا عابديهم هم في الدّرجة الأولى الملائكة الّذين زعم مشركو العرب أنّهم بنات اللّه ، وعيسى ابن مريم الّذي زعم مشركو النّصارى أنّه ابن اللّه ، وعزير الّذي زعم مشركو اليهود أنّه ابن اللّه ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً** ﴾[2] ﴿ **وما أمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو سبحانه عمّا يُشركون** ﴾[3] .

وبعد أن لزمت المشركين الحجّة صدر بحقّهم أمره عزّ وجلّ ، فوردوا النار وقيل لهم آنذاك : ﴿ **فما تستطيعون صَرْفاً ولا نَصْراً** ﴾ أي لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم العذاب ، ولا يستطيعون أن يحصلوا على النّصر لأنفسهم ، من الّذين تورّطوا في عبادتهم . لقد تبرءوا منهم على رؤوس الأشهاد . وإنّ هذا التّرتيب للّفظتين ، صرفاً ونصراً ، يوحي بالتّرتيب الطّبيعي للعمليّتين . يحاول المرء درء الخطر عن نفسه أوّلاً ، فإذا عجز طلب العون والنّصر من غيره . وسبق أن نصّت الآية الثالثة من السّورة على عجز الآلهة المزعومة وقلّة حيلتها .

---

(١) البحر المحيط ٦/٤٨٩ .
(٢) سورة الكهف ، ٥ .
(٣) سورة التّوبة ، ٣١ .

فإذا تحوّلنا إلى القسم الثّالث والأخير في الآية : ﴿ **ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً** ﴾ تبيّن أنّه ينطبق على كلّ الظّالمين إذ هو إنذارٌ موجَّهٌ لكلّ الّذين شابهت أحوالهم في هذه الحياة أحوال الظّالمين الّذين لا يستطيعون يوم القيامة صرفاً ولانصراً ، كما جاء في الآية الكريمة ، كي يأخذ هؤلاء حذرهم ويهتبلوا الفرصة قبل أن تفوت ولا تعود . والمراد بالظّلم الشّرك على حد قوله تعالى(١) : ﴿ **إنّ الشّرك لظلم عظيم** ﴾ .

وتمشّياً مع فاصلة الرّاء الغالبة على أكثر آيات السّورة الكريمة ، حيث قد جاءت في أكثر من نصف آياتها ، جاءت لفظة « كبيراً » صفة للعذاب الّذي جاء منكّراً ، فتلته لفظة كبيراً التي تتمشّى مع حجم العذاب المهول الّذي ينبغي أن يكون أليماً للغاية . قال تعالى : ﴿ **فقد كذّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ، ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً** ﴾ .

الرّدّ على الاعتراض بكون الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق :

ردّاً على اعتراض كفّار مكّة بكون الرّسول يأكل الطّعام وبالتّالي يتخلّص من فضلاته ، ويمشي في الأسواق جاء قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون وكان ربّك بصيراً** ﴾ .

إنّ اعتراض كفّار مكّة هذا امتدادٌ لاستكثارهم أن يكون رسول

---

(١) سورة لقمان ، ١٣ .

اللّه إليهم واحداً منهم ، خاصّةً وأنّه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يكن واحداً من أثرياء مكّة ، وبالتّالي هو ليس واحداً من عظمائها لأنّ الثّراء في اعتقادهم من أهمّ مقاييس العظمة . وحيث إنّ الّذي بعث اللّه تعالى رسولاً واحدٌ منهم فقير ، لذا كان بحاجةٍ إلى أن يضرب في الأرض يبتغي من فضل اللّه تعالى . وإنّما انساق كفّار مكة إلى أمثال هذه الاعتراضات لأنّهم يعتقدون أنّ بني البشر أقلّ رتبةً من منزلة الرّسالة أساساً . وحينما تبيّنوا أنّ الرّسول واحد منهم لفت انتباههم الملابسات الّتي تحيط بهذا الإنسان . وقد غابت عن القوم حكمة اللّه تعالى في اختيار الرّسول واحداً منهم رأفةً بهم ، لأنّ طبيعتهم لا تطيق كون الرّسول إليهم واحداً من الملائكة لاختلاف الطبيعتين . وإلى هذه الحكمة أشارت سورة الإسراء[1] في قوله تعالى : ﴿**وما منع النّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلّا أن قالوا أبعث اللّه بشراً رسولاً . قُلْ لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزّلْنا عليهم من السّماء ملكاً رسولاً . قل كفى باللّه شهيداً بيني وبينكم ، إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً**﴾ وجاء في سورة الأنعام[2] قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لَقُضِي الأمر ثمّ لا يُنْظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللَبَسْنا عليهم ما يلبسون** ﴾ فبما أنّ طبيعة البشر لا تقوى على رؤية الملك ، لذلك كان ينبغي لهذا الملك ـ لو شاءت إرادة الله تعالى له أن ينزل ـ أن يتمثّل في صورة رجل ولكرّر الكافرون اعتراضهم السّابق : ما هذا إلّا بشرٌ مثلكم .

ومن الأدلّة على أنّ طبيعة البشر لا تطيق رؤية الملائكة فضلاً عن

---

(١) آيات ، ٩٤ ـ ٩٦ .

(٢) آية ، ٨ ، ٩ .

الأنْس بهم أنس البشر بالرّسول صلى اللّه عليه وسلّم وإلفهم له واستفادتهم منه ، أنّه عليه الصّلاة والسّلام ، وهو من هو ، كان يجد شيئاً غير قليل من المشقّة حينما يلاقي جبريل عليه السّلام ويتلقّى عنه الوحي . وقد تبيّن الّذين سعدوا بمشاهدته صلّى اللّه عليه وسلّم وهو يتلقّى الوحي ، المشقّة الّتي كان يكابدها عليه الصّلاة والسّلام .

ثمّ إنّ كون خاتم الأنبياء والمرسلين واحداً من البشر ، امتدادٌ لسنّة اللّه تعالى الّتي اقتضت ذلك منذ أن بعث اللّه تعالى أوّل أنبيائه ورسله . لقد كان واجب المكيّين أن يفطنوا لذلك لا أن يطالبوا بأن تتغيّر السُّنن والنّواميس . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق** ﴾ « قال ابن الأنباري : التّقدير إلاّ رإنّهم ، يعني أنّ الجُمْلة حاليّة »[1] وينبغي أن يكون حرف الجر في قوله : « من المرسلين » معمّقاً لحقيقة كون كلّ الرّسل بلا استثناء من بني البشر .

وحيث إنّ المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد أمعن قومه في تكذيبه ، بحاجة دائمة الى تثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام ، فقد قام القسم الثّاني في الآية بذلك التثبيت ، عن طريق التّبيين بأنّ ما يلاقي عليه الصّلاة والسّلام من قومه شيء طبيعيّ ، سبق أن لاقاه المرسلون قبله ، وسيلاقيه المصلحون من بعده أسوة بالمصلحين السّابقين . فهذه أيضاً سنّة اللّه تعالى : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون** ﴾ . والحقيقة أنّ كون البعض فتنةً للبعض الآخر يشمل العديد من الميادين . فالغنيّ مثلاً فتنةٌ للفقير ، والصّحيح فتنة للسّقيم ، والفقير الشّاكر فتنة للغنيّ ، والنّبيه فتنةٌ للخامل ، والذّكيّ فتنة للغبيّ ، والعالم

---

(١) البحر المحيط ، ٦/ ٤٩٠ .

فتنة للجاهل ، والحاكم العادل فتنة للظّالم ، وبعض ما جعل اللّه تعالى للكافرين به من نعيم فتنة لغير الرّاسخين في العلم والإيمان . وإلى الظاهرة الأخيرة مثلاً ، أشارت هذه الآيات[1] من سورة الزّخرف ، قال تعالى : ﴿ **ولولا أن يكون النّاس أمّة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرّحمن لبيوتهم سُقفاً من فضّةٍ ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً ، وإنْ كل ذلك لمّا متاع الحياة الدّنيا والآخرة عند ربّك للمتّقين** ﴾ . والرّسول الكريم فتنة لقومه الكافرين الّذين يحسدونه على فضل اللّه تعالى عليه ويحرصون على أن ينالوا من شخصه الكريم ، وهكذا .

وبعد تبيين الحكمة ، كان لا بدّ من الدّرس الّذي ينتفع به المؤمنون المتّقون ، وكان ذلك في هيئة الاستفهام : ﴿ **أَتَصْبرون** ﴾ فالمطلوب من المؤمنين المتّقين أن يصبروا ، في الضّرّاء والسّرّاء . في الضّرّاء بما قسم اللّه تعالى لهم ورضي . وفي السّرّاء بالصّبر عن المعاصي . وإذا كانت صيغة الاستفهام : « أتصبرون » تحثّ على الصّبر الّذي سينال صاحبه الجزاء الأوفى ، فإنّها في الوقت ذاته قادرةٌ على الإيحاء بأنّ لكلّ مجتهدٍ نصيباً . وعلى قدر المحاولة والعزم يكون التّوفيق بعون اللّه تعالى أو بالإخفاق . وإذا كان ثواب الصّبر جزيلاً ، فإنّ عقاب الجزع والهلع أليم ، في الدّنيا والآخرة .

وختمت الآية الكريمة بالقول : ﴿ **وكان ربّك بصيراً** ﴾ وإنّ لفظة الرّب ، واستعمال ضمير المخاطب الّذي يعود بالدّرجة الأولى إلى المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، دليلٌ على أنّه عليه الصّلاة والسّلام هو المقصود أوّلاً ، على الرّغم من أنّه يصحّ أن يفهم كلُّ مسلم أنّ

---

(١) آيات ٣٣ ـ ٣٥ .

الخطاب موجّهٌ إليه . فعلى كلّ أن يفقه حكمة اللّه تعالى من الاختلاف في طبائع البشر وأهوائهم ومشاربهم . وحينما يقف المرء على طبيعة هذه الحكمة ، يعيش حياته هادىء البال هانىء النفس ، حينما تجري الرّياح بما لا تشتهي سفنه لا يثور ولا يغضب ، إنّما يصبر ويعمل جهد الطّاقة ، تالياً في خشوع قوله تعالى[1] : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردّون الى عالم الغيب والشّهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون** ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ ولو شاء ربّك لجعل النّاس أمّة واحدة * ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك * ولذلك خلقهم * وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين ﴾ . إنّها حكمة اللّه تعالى الّتي تسيّر كلّ ذرّةٍ في هذا الوجود . فعلينا أن نفهم هذه الحكمة . وسننتهي حتماً إلى أنّنا نحْنُ إحدى ذرّات هذا الوجود . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق * وجعلنا بعضكم لبعض فتنة * أتصبرون * وكان ربّك بصيراً** ﴾ .

الرّدّ على الحضّ بأن ينزل الى الرّسول ملك فيكون معه نذيرا .

قال تعالى : ﴿ **وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً* يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً * وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً * أصحاب الجنّة يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسن مقيلاً * ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونُزّل الملائكة تنزيلا * الملك يومئذٍ الحقّ للرّحمن * وكان يوماً على**

---

(١) سورة التّوبة ، ١٠٥ .

(٢) سورة هود ، ١١٨ ، ١١٩ .

الكافرين عسيراً * ويوم يعضّ الظّالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلا * يا ويلتي ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلّني عن الذِّكْر إذ جاءني * وكان الشّيطان للإنسان خذولا * وقال الرّسول يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً * وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّاً من المجرمين * وكفى بربّك هادياً ونصيراً ﴾ .

لاحظنا بشأن الرّدود الثلاثة السّابقة ، أنّ كلاًّ منها لم يقف عند الرّدّ على الاعتراض ، إنّما تجاوز ذلك إلى وصم الكافرين بما هُمْ أهلٌ له . بشأن الرّد الأوّل وُصِفوا ـ مثلاً ـ بالظّلم والضّلال .وبشأن الرّدّ الثّاني وصفوا بأنّهم كذّبوا بالسّاعة وسيلقون سعيراً . وبشأن الرّدّ الثّالث وُصِفوا بأنّهم فتنة . وبشأن هذا الرّدّ الأخير نتبيّن أنّ الآية الكريمة الأولى تصف الكافرين بالاستكبار والعتوّ الكبير كما أنّها ضمّت اقتراحين قريبين من جنس الاقتراح الّذي هو بحاجة للرّدّ عليه . ثمّ ردّت الآيات بعد ذلك على أكثر الاقتراحين المضمومين قرباً من الاقتراح الّذي لم تردّ عليه بعد . وفي ذلك ردّ على الاقتراح السّابق أيضاً ، لأنّ الجامع بين الاقتراحين الاستهانة بالملائكة فهما من جنسٍ واحد . وبذلك شمل الرّدّ الاقتراح بأن ينزل الى الرّسول ملك فيكون معه نذيراً ، والاقتراح بأن ينزل عليهم الملائكة . وبتأمّلنا لهذا الرّدّ ، يتّضح أنّه ينطلق من قاعدة الملائكة ـ بطبيعة الحال ـ ولكن من زاوية يوم القيامة الّذي يكذّب به الكافرون . وفي هذا اليوم سيبصرون ملائكة العذاب الّذين استهزأوا بهم في الحياة الدّنيا . وتفيض الآيات في وصف عاقبة استهزاء الكافرين وإنكارهم يوم القيامة . إنّه يوم عسيرٌ عليهم جدّاً ، وسيندمون على ما فرّطوا في جنب اللّه تعالى وجنب رسوله الّذي أنزل عليه القرآن الكريم . ووصف هؤلاء الكافرون بأنّهم مجرمون . وهكذا يتبيّن أنّ الرّدّ في مجموعة قد سار في ضوء استهانة الكافرين بالملائكة. ومع ذلك فإنه

أغفل بالكّلّية الزّاوية الّتي اهتمّ بها الكافرون وهي زاوية الحياة الدّنيا، وتحوّل إلى الحياة الأخرى الّتي يكذّب بها المجرمون والّتي سوف يرون فيها ملائكة العذاب . أمّا طلب الكافرين أن يروا اللّه تعالى فقد سكت عنه بالكلّيّة وذلك بعد الآية الأولى الّتي وصفت الكافرين بسبب هذا الطلب بالعتوّ الكبير . واكتفت الآيات بالحديث عن الحق جلّ وعلا الّذي له الملك الحقّ يوم القيامة ، كما سجّلت شكوى المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم لربّه ، في ذلك اليوم ، قَوْمَهُ الّذين اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً . والمراد بالقوم كفّار مكّة الهدف الأوّل لسورة الفرقان .

فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : ﴿ **وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنْزِل علينا الملائكة أو نرى ربّنا * لقد استكبروا في أنفسهم وعَتَوْا عُتُوّاً كبيراً** ﴾ . نودّ الوقوف أوّلاً عند جملة : « يرجون » هل هي على طبيعتها هنا من الرّجاء الّذي هو من جنس الأمل ، أم أنّها بمعنى الخوف فتكون تهاميّة أو هذليّة[1] الحقيقة أنّا بتتبّع سياق الآيات في صدر السّورة تبيّن أنّ الحديث يدور في مجموعه حول إنذار كفّار مكّة منكري البعث . وحيث إنّ الحديث هنا لا زال عن هؤلاء المكذّبين للسّاعة أنفسهم ، فمعنى هذا أنّ خوفهم من لقاء اللّه تعالى لا وجود له أساساً ، لأنّهم لا يعتقدون في صحّة ذلك اللّقاء أصلاً ، وبالتّالي يكون الرّجاء في الآية الكريمة على طبيعته ، وكأنّ الآية الكريمة تنفي عن القوم أبسط درجات الصّفات الّتي تلابِسُ أقَلَّ النّاس إيماناً . وذهاب الرّجاء في لقاء اللّه تعالى يعني أن القوم لا يعتقدون في البعث والنشور والحساب . ومن الّذي يصحّ بشأنه الخوف من لقاء ربّه ؟ إنّه المؤمن الواقع بين مخافتين ، بين شعوره بالتقصير في جنب الله تعالى . وبين

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ٦/٤٩١ .

خوفه ألاّ يتقبّل اللّه تعالى منه . وفي حقّ المؤمنين جاء قوله تعالى[1] : ﴿ **والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون** ﴾ فهؤلاء لفرط إيمانهم ، يخشون ألاّ يتقبّل اللّه تعالى منهم صالح الأعمال ،لعلمهم القطعيّ أنّ دخولهم الجنّة بفضل اللّه تعالى وليس بأعمالهم .

ولم تقف الآية الكريمة عند طلب الكافرين الأوّل الأحمق : ﴿ **لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً** ﴾ إنّما تناولت القضيّة من جانبها الآخر ، ثمّ تدرّجت صُعُداً مع القوم في طلبهم الأكبر ، قال تعالى : ﴿ **وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا** ﴾ . وقد جاء في سورة الإسراء أيضاً الجمع بين الطّلبين اللّذين يجمع بينهما الارتباط بالسّماء ، قال تعالى على لسان هؤلاء الكافرين[2] : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتّى . . . أو تأتيَ باللّه والملائكة قبيلاً** ﴾ . أمّا طلب كفّار مكّة أن ينزل عليهم الملائكة فإنّهم أرادوهم شهوداً بأنّ محمّداً صلّى اللّه عليه وسلّم رسول ربّ العالمين . وهل القوم جادّون في طلب هذا المستحيل ؟ لا إنّهم هازلون لاعبون لأنّهم مكذّبون أساساً للبعث وللرّسول الكريم وللقرآن الحكيم ، ولا يريدون سوى التّلهي بتقديم مثل هذا الطّلب الّذي يعلمون يقيناً أنّه لن يتحقّق . وإذا كان هزل القوم قد تبيّن في طلبهم الملائكة شهوداً ، فإنّ هزلهم أشدّ ثبوتاً في طلبهم أن يروا اللّه تعالى جهرة .

وحيث إنّنا بصدد طلبين غير معقولين لهؤلاء الّذين لا يرجون لقاء ربّهم ، فقد كان في الآية الكريمة ردّان يمكن أن يقال عن كُلٍّ إنّه ردٌّ

---

(١) سورة المؤمنون ، ٦٠ .

(٢) سورة الإسراء ، ٩٢ .